تحليل نصوص شعرية لشعراء من العصر العباسي

أبو تمّام (ت232هـ)

هو حبيب بن أوس الطائي من شعراء الشام في القرن الثالث الهجري، كان قد تربّع على عرش الشعر العربي زمناً وقد قال فيه ابن خلكان: " كان أوحدَ عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره، وحسن أسلوبه، وله "الحماسة" ، التي دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر سمّاه "فحول الشعراء" جمع فيه طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين، وكان له من المحفوظ ما لايلحقه فيه غيره، قيل إنه كان يحفظ اربع عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطع ، ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم، ويرجع نسب أبي تمام إلى قبيلة طيء فقيل: "خرج من قبيلة طيء ثلاثة كل واحد مجيد في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام في شعره". توفي أبو تمام بالموصل سنة "231هـ".

(تحليل نص من قصيدته البائية)

قال أبو تمام:

لو أنَّ دهراً ردَّ رجع جواب أو كفّ من شأويه طولُ عتاب

لعذلته في دمنتينِ بأمرةٍ ممحوتين لزينب ورباب

ثنتان كالقمرين حُفَّ سناهما بكواعب مثل الدّمى أتراب

من كلّ ريم لم ترم سوءاً ولم تخلط صبى أيامها بتصابي

أذكت عليه شهاب نار في الحشا بالعذل وهناً أخت آل شهاب

عذلاً شبيهاً بالجنون كأنما قرأت به الورهاءُ شطر كتاب

أوما رأت برديّ من نسج الصبى ورأت خضاب الله وهو خضابي

إن الخاصية الفنية التي يرسخها النص، تتركز في لغته التي تنطوي في الأصل على رسالة المنشئ. والنص الذي بين أيدينا يرتد في سياقه إلى موضوع الطلل الذي رسخه الشعراء الجاهليون منذ عهد امرئ القيس الذي أنجز أهم النصوص الطللية حتى كأنما أضحى الشعراء من بعده عيالاً عليه، وقد تمثلت أرقى نماذجه الطللية في فاتحة معلقته حيث يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللّوى بين الدَخولِ فحوملِ

فهذه المقدمة وغيرها في الشعر الجاهلي انطوت على أهم الأفكار التي قام عليها موضوع الأطلال في الشعر العربي.

لم يكن أبو تمام في نصه السابق يرضخ لعبودية الفن القديم، وفي الوقت نفسه وهو على رأس مجددي الشعر في العصر العباسي، ولم يستغنِ استغناءً تاماً عن الرسوم التي خطتها يد المتقدمين، فكان عمله يترجح بين المحاكاة والتفرُّد، وقد بدا تفرّده في إضافة كثيرٍ من المعاني إلى ظاهرة الطلل كما برز في موقفه من الدهر إذ رأى أن عمل الدّهر – التخريبي – لا يواجه بالبكاء على نحو ما عبّرَ عنه الجاهليون أمثال امرئ القيس في مقدمته السابقة، وإنما يواجه بالإبداع، بمعنى أن فكرة الخلود التي رثى الشعراء وجودها تجسدت عنده في القصيدة، يقول في نهاية القصيدة التي أخذ منها النص الذي بين أيدينا:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدّجى والليل أسود رقعة الجلباب

بِكراً تورث في الحياة وتنثني في السلم وهي كثيرة الأسلابِ

ويزيدُها مرُّ الليالي جدةً وتقادم الأيامِ حسنَ شبابِ

فهو يجعل القصيدة ابنة للفكر، ثم يجعلها بِكراً من جهة انطوائها على المعاني الفريدة، وأخيراً يجعلها خالدةً لايطولها الفناء والعدم، فمن الواضح أن رؤيته لعمل الدهر تخالف رؤية سابقيهِ، **وهذا الاختلاف يدخل تحت إطار المحاكاة المعارضة أو النقيضة التي تدخل في باب التناص**. إذن موقف أبي تمام من الدهر يعارضُ فيه كثيراً من الشعراء، بل نجد له من الأشعار ما يدل على أنه عقد مصالحة مع الدهر على نحوٍ عجيب، فإذا كان الدهر عند الشعراء ظالماً متجبّراً، لأنه بطبيعته يقرّب الأحياء من آجالهم، إلا أنه عند أبي تمام رقيقٌ تموجُ ظواهره ليناً ونعمةً، يقول:

رقّت حواشي الدّهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليهِ يتكسّر

وهذا يدل على أن أبا تمام قد عبّر عن مفهوم الدهر تعبيراً مغايراً عن تعبير غيره من الشعراء، وهو في موقفه من الدهر يُعدُّ فريداً في هذا الموضوع. وعليه فإن النص الذي أنتجه أبو تمام، وهو نصٌ لا يخلو من عناصرَ فريدة، كما أنه لا يتجاوز الموروث، بمعنى أن موضوع الطلل وهو موضوع موروث استحال على يد شاعر مُحدَث كأبي تمام معرِضاً للرؤى الفلسفية، ومن هنا تحول موضوع الطلل عنده إلى باب للتأمل، بعد أن كان معرِضاً للهواجس والانفعالات والأحزان الناجمة عن إحساس الشاعر بالعجز إزاء فعل الزمن.

ومن هنا رصد الشعراءُ لهذا الموضوع سيلاً عاطفياً جارفاً على اعتبار أن الشاعر يرى أن مصيره لا يختلف عن المصير الذي واجهته الديار، في حين نجد أن شاعراً كأبي تمام يرفدها بما استجد في وعيه من تصاويرَ بديعة ورؤىً عميقة تدلُّ بوضوح على أنه نقل الشعر العربي من الإطار الذاتي الضيق إلى الإطار التأملي الواسع الذي يسمح بدخول الفِكَرِ وما يتمخض عن العقل من تأملٍ واسع في الكون والحياة.

أبو العلاء المعري (ت449هـ)

أحمد بن سليمان المعري، كان من كبار شعراء عصره، جمع بين حسن المنظوم وروعة المنثور، صاحب "اللزوميات" وله شعر قاله في صباه سماه "سقط الزند" وله في النثر تصانيف عدة منها "رسالة الغفران"، وكان شرح ديوان أبي الطيب المتنبي في كتاب سماه "اللامع العزيزي"، وقيل صنف كتابا آخر في شعره سماه "معجز أحمد"، وألف في شعر أبي تمام كتاباً سماه "ذكرى حبيب"، وكذلك ألف كتاباً عن شعر البحتري سماه "عبث الوليد".

عُميَ المعري من الجدري عندما كان صغيراً، وكان خرجَ إلى بغداد سنة 398 وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم عاد الى المعرة، ولزم بيته وشرع في التأليف، فأخذ عنه الناس، وتتلمذ عليه الطلاب، وكاتبه الزعماء والأمراء، وسمى نفسه رهين المحبسين للزوم منزله وذهاب بصره، عاش مدة خمسة وأربعين عاماً لا يأكل اللحم؛ لأنه كما يقول "ابن خلكان" : **"كان يرى رأي الحكماء المتقدمين وهم لا يأكلونه كي لا يذبحوا الحيوان ففيه تعذيب له، وهم لا يرون الايلام في جميع الحيوانات"**، مات المعري سنة 449 للهجرة، وقد رثاه تلميذه ابن همام بقوله:

إن كنتَ لم تُرِقِ الدماء زهادةً فلقد أرقت اليوم من جفني دما

(تحليل نص من قصيدته النونية)

قال المعري:

عِلّلاني فإنَّ بيضَ الأماني فَنِيَتْ والظلامُ ليسَ بفاني

إن تناسيْتُما وِدادَ أُناسٍ فاجعلاني من بعضِ منْ تذكرانِ

ربَّ ليلٍ كأنَّهُ الصُّبحُ من الحُسْـ ـنِ وإن كانَ أسودَ الطَّيلسانِ

قد ركضنا فيه إلى اللّهو لمّا وقف النجمُ وِقفَةَ الحيرانِ

كم أردنا ذاكَ الزمانَ بمدحٍ فَشُغِلْنا بذمِّ هذا الزّمانِ

فكأنّي ما قلتُ والبدرُ طِفلٌ وشبابُ الظلماء في عنفوانِ

ليلتي هذهِ عروسٌ من الزّنـ ـجِ عليها قلائد من جُمانِ

لقد كان المعري في بادئ حياته مفتوناً بالمتنبي، يتمثل خلقه، وينحو نحوه في الأنفةِ والاستعلاء، وليس في ذلك فحسب، وإنما بلغ به الأمر أن قلده، فصنعَ ديوانه (سقط الزند) احتذاءً على أشعار أبي الطيب المتنبي، ومن أجل ذلك آثرنا النظر إلى هذا النص من شعره من **باب التناص القائم على المحاكاة المقتدية والنقيضةِ** معاً.

من الملاحظ أن النص ينفتح على سياقه بوساطة قوله (عللاني) وهي صيغة تقليدية من جهة استهدافها مخاطبة الاثنين، وهذا النوع من الافتتاح معروف منذ عهد امرئ القيس إذ بدأ معلقته بقوله:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخولِ فحوملِ

لو أعدنا النظر الى مطلع قصيدة المعري لوجدناه يبعث في نفس القارئ ايحاءات خاصة بموضوع القصيدة، مثل محاولة المعري الانفلات من الظلام الذي طوق عالمه، والظلام عند المعري لا يتملك نفسه بوصفه كفيفاً فحسب، وإنما هو وشاح يلف العالم كله، وفي ظل الاحساس بسطوة الظلام فمن الطبيعي أن تتلاشى (بيض الاماني) لتغدو عرضةً للفناء، والمعري لم يجد بدّاً للانفلات منه إلا بقوة الفكر، إذ للفكر قوةٌ بوسعها أن تنفلت من الظلمة كما ينبلج ضوء الصبح من عباءة الليل المدلهم، لا بل أن الرؤى والأفكار من شأنها أن تحقق توازناً بين المعري والعالم، لا سيما حين يغدو الليل والعمى عنصراً واحداً، ولا بد أن تتحول الرؤى إلى نجوم، على اعتبار أن النجوم تضيء في الليل، والافكار تشع في عالمه المظلم، وعلى الرغم من أن الظلامَ سرمدي عند المعري، إلا أنه قابلَ للتحول كأن يصير كالنهار طالما أن النجوم ساطعة، فمن هذه الناحية يحسن الليل لاتصاله بلذة التفكر لا لكونهِ مرتبطاً بمتعة الحس التي لم تجد سبيلاً إليه طيلة حياته التي قضاها حبيس العزلةِ والعمى، وكان لذلك قد سميَ رهين المحبسين، وأمضى من حياته خمساً وأربعين سنةً لا يأكل اللحم، مقتصراً في طعامه على ما تنبت الارض، ويلبس خشن الثياب، ويظهر دوام الصوم، وهذا يدل على أن اللذة في حياته كانت مقصورة على لذّة الفكر.

لقد عشق المعري الليل من جهة الفكر إذن، وهو بذلك كان قد عشق الحياة، ذلك لأن حياته ليلٌ لا ينقضي، وهو في ليله يسمو ليلامس النجوم التي في السماء، والليل عند المعري سلّمٌ للارتقاء، وهو عروسٌ من الزنج محلاة بنجوم كالجمان.

من الواضح أن المعري كان يجد ذاته في الظلام، حتى لكأنه وعاء عبقريته، وجذوة تفكره، وهو إذ يجسد هذه الحال من التوهج فإنه في الواقع يعبر عن رؤية كونية تتكامل فيها عناصر الوجود، وهنا برز شعوره بالسمو والرفعة، إذ رأى في

نفسه من ظواهر التفرد ما يدنيه من النجوم، وهذه النظرة بالطبع لا تسلخ عنه الرؤيا القائمة على وحدة الوجود؛ لأنه يتحدث هنا على لسان الكون على اعتباره جزءاً منه.

إن هذه الرؤية المتعالية شبيهة برؤية المتنبي المبدع المتفرد الذي سما بنفسه حتى فاق الناسَ والافلاكَ وكل ما خلقَ الله سبحانه وتعالى، لقد أخذه الشعور بالزهو من جراء إبداعاته الشعرية حتى رأى في نفسهِ أسمى مخلوقات الله على الأرض، فقال:

وكل ما خلق اللـــــه وما لم يخلق

محتقرٌ في همتي كشعرةٍ في مفرقي

إن المعري يحذو حذوالمتنبي في الكلام على تفرده، من أجل ذلك نجد تداخلاً بين هذا النص ونصوص اخرى من شعر المتنبي، يتمثل بالتعالي والإحساس بالتفوق، ومخالفة القواعد والتطاول على ما هو مألوف، وهو الأمر الذي بالغَ فيه في مطلع حياته، ثم كرهه في آخر زمانه.

وهذا إنما يندرج تحت إطار **المحاكاة المقتدية**، أما ما يتصل بالمحاكاة النقيضة فتتمثل بفرائد النص الشعري، وهي تتصل أكثر ما تتصل بالرؤيا أو موقف الشاعر من الدهر، وهنا يبدو لنا أن المعري يعارض المتنبي في موقفه من الزمان، إذ المتنبي كان متبرماً بالزمان وأهله، وليس ذلك فحسب وإنما نجده يستعدي فعل الدهر المتمثل بالموت، إذ رأى في الموتِ قوة قاهرة لا تُغلب، وليس هناك من سبيلٍ لمواجهتها، لأن الموت كما يقول سارق لا هيئة له:

وما الموتُ إلا سارقٌ دُقَّ شخصهُ يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلِ

في حين نجد المعري يخالف المتنبي هنا في قوله:

كم أردنا ذاك الزمان بمدحٍ فشغلنا بذم هذا الزمان

فالزمان عنده يستوجب المدح، إذ هو ينتقد من يذم الزمن الحاضر، ويثني على الزمن الغابر، وعليه فالزمان لا يتجزّأ فهو بتفاصيله المختلفة حري بالمدحِ والثناء، لأن عمله ضرورةٌ لدوام الكون واستمراريته.